بين فن التاريخ وفن الحرب

٣ ـ خالد بن الوليـــــد *

فى حروب الردة

للفريق طـــه باشا الهـاشمى

رئيس أركان حرب الجيش العراق

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعـير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

٥ — أسلوب القتال :

من الخطأ القول بأن ليس للعرب أسلوب فى القتال قبل الاسلام . فان من تتبع أخبارهم فى الجاهلية اتضح له أن للقوم مبادىء يسيرون عليها فى قتالهم ، وكانت هـذه المبادىء ملائمة لاستعمال سلاحهم ومنطبقة على البيئة التى يقاتلون فيها .

أجل ، إن العرب لم تقاتل بالجموع التى كان يقاتل بها الفرس أو الروم الذين كانت جيوشهم كبيرة قد تربو على المائة ألف فى بعض المعارك . وجيش بهذه القوة يحتاج الى تنظيم لسوقه قبل المعركة وتعبئته فيها . فجيش أولئك الأعاجم كان ينقسم الى راجلين وفرسان والى طاعنين وضاربين ورماة . وكانت الفيلة عند الفرس والعجلات الحربية عند الروم ، تقوم مقام الأسلحة الثقيلة كالدبابات والمدافع الضخمة فى يومنا هذا .

فنظام القتال عند اليونان كان مستنداً الى « الفيلق » (الفلانكس) وهو وحدة تعبوية يبلغ متوسط قوتها (٤٠٠٠) مقاتل ، يصطف الجنود فيها على ستة عشر صفاً طول كل صف (٢٥٦) مقاتلاً . والجنود فى « الفيلق » (الفلانكس) من المشاة مسلحون بالرمح والسيف والحربة والمغفر والدرع والترس . ويتكون من « الفيلق » القلب ويقف فى الخط الثانى الذى يسبقه الخط الأول المؤلف من الرماة ويليه الخط الثالث . وتقف الخيالة فى الميمنة والميسرة لحماية الجانب .

ويتألف الجيش عادة من أربعة « فيالق » (فلانكسات) متى تيسرت القوة فيه . فتقف « الفيالق » جنباً إلى جنب وبينها فاصلات صغيرة تتراوح بين عشرين وأربعين خطوة .

وكان هذا النظام لا يصلح للقتال إلا فى الأرض السهلة المنبسطة ، والمقدرة على الحركة فيه قليلة ، ولا يستطيع تغيير الجبهة متى اقتضى الموقف ذلك ، فضلاً عن أنه معرض للخسارة إذا أصيب برمى السهام .

أما نظام القتال عند الرومان فكان مستنداً الى (اللجيون) ، وهذا ينقسم الى الكراديس ومجموعها عادة عشرة . وكانت الكراديس سابقاً تُعبأ على خطين كل خمسة منها فى نسق وبينها فاصلة جهة كردوس ، على أن تقف كراديس الخط الثانى وراء فاصلات الخط الأول .

ثم تطور هذا النظام فى عهد يوليوس قيصر ، فكان اللجيون يقف على ثلاثة خطوط : فى الخط الأول أربعة كراديس ، وفى كل من الخطين الباقيين ثلاثة ، وتبلغ قوة كل كردوس ألف مقاتل .

وتؤلف الكراديس القلب ، ويقف أمامه الرماة الذين يرمون العدو بسهامهم أو بحرابهم قبل الاصطدام ثم ينسحبون الى المجنبات . أما الخيالة فتحمى المجنبتين .

وكان نظام الكراديس يفوق نظام « الفيلق » « الفلانكس » فى القدرة على القتال والحركة والسير بسهولة ، وكان فى استطاعة الكراديس أن ينجد بعضها بعضاً .

والجانب فى اللجيون قوى بخلاف جانب « الفيلق » (الفلانكس) ، لأن كراديس الجانب متى غيرت ناصيتها استطاعت أن تقابل العدو الملتف حولها .

وسار الروم أو البيزنطيون فى قتالهم على نظام الكراديس . فأخبار الفتوح الأولى تدل على أنهم كانوا يعبئون قواتهم كراديس ويحمون مجنبتهم باليمنة والميسرة . وكانت قوة الجيش تختلف باختلاف عدد اللجيونات وتقف على خط واحد ، فاما أن تؤلف القلب فتؤلف الخيالة وحدها الميمنة ، واما أن تؤلف القلب والميسرة والميمنة وتكون الخيالة على الجانبين .

وإذا كان عـدد اللجيونات كثيراً يحتوى القلب عادة على أكثرها . وقد زادت قوة الخيالة على ما كانت عليه فى زمن

(*) وهو بحث فني قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل . « الرسالة »

الرومان، ذلك لأن الأقوام المتوحشة التي هاجرت من آسيا ودخلت أوربا باعت رومية بجيوشها الخيالة الكبيرة. ولما توطنت هذه الأقوام في أوربا، واندمجت في القاطعات الرومانية وجهزت الجنود لجيوش رومية زاد عدد الخيالة فيها وأصبح للفارس شأن خطير في القتال.

ولا يختلف نظام القتال عند الفرس عن نظام القتال عند الروم إلا اختلافاً يسيراً. والجيش الفارسي على ما يظهر كان منقسما إلى كتائب — والكتيبة تقابل الكردوس وتبلغ قوتها ألف مقاتل — وكان خط القتال فيه ينقسم الى القلب واليمنة واليسرة، وكانت كتائب الخيالة تحمي الجانبين على ما هو شائع. وكانت الفيلة تتقدم في جبهة القتال وعلى ظهورها الجنود المسلحون بالحراب والقسي. والذي يلفت النظر أنه كان للرماة شأن خطير في الجيش الفارسي. ولعل المشاة كانوا جميعاً مجهزين بالقسي وجدٌّ ماهرين في الرماية.

ومن الأساليب التي كان الجيش الفارسي يلجأ اليها في حرج الموقف ربط الرجال بعضهم ببعض بالسلاسل لكي يثبتوا في محلهم مهما كلفهم الأمر.

فازاء هذه الأنظمة الشائعة بين الدول الكبرى المجاورة لبلاد العرب، كان طبيعيا أن يسير الحرب على أسلوب معين في قتالهم. ولم يغزو العرب في عُقر دارهم في السنوات التي سبقت الفتوح. فالرواة يروون هجوم الحبشة على بلاد اليمن، وتوغلهم فيها بعد انتصارهم على الجيش اليماني، ويشيرون الى اتجاه تبابعة اليمن الى أكاسرة فارس وطلب النجدة منهم. فجاش الجيش الفارسي عباب البحر على أسطوله، وأرست سفنه على شواطىء اليمن، وحارب الأحباش وانتصر عليهم وطردهم من اليمن.

والقصاصون ينقلون أخبار المناذرة والغساسنة في حروبهم ومساعدتهم لكسرى أو لقيصر في الحروب الطاحنة التي دارت رحاها بين الفرس والروم. وقد ورد في القرآن الكريم نتف من أخبارها.

أما مؤرخو الرومان فيذكرون انتصار ملك تدمر أذينة على الرومان واعتزاز زوجه الزباء (زينوبيا) بالعاصمة تدمر.

فهذا الاحتكاك المستمر بين العرب والأمم المجاورة لهم والاشتراك في القتال مع الجيوش الأجنبية مهجدين أو مستنجدين، والغارات المتوالية على أرض السواد في العراق أو أرض الشام، كل أولئك حمل العرب على اقتباس بعض الأساليب الحربية الشائعة عند الفرس والروم، لذلك لا يأخذنا العجب اذا سمعنا أن للمناذرة كتيبتين، أي كردوسين: الدوسر والشهباء، وأن بكر بن وائل قاتلت الفرس في يوم ذي قار على تعبئة

ومن المبادىء الحربية التي كان العرب يتمسكون بها في قتالهم مبدأ المباغتة، والمقدرة على الحركة، والأمنية. فالمباغتة من أخطر المبادىء التي كانوا يتوخون منها الفوز في جميع خططهم. لذلك تدل أخبار أيامهم ووقائعهم في الردة على عنايتهم الزائدة بالاستطلاع، فكانت العيون تسبق حركاتهم، فاما أن يباغتوا عدوهم بأخذه على غرة، أو أن يكمنوا له فيفاجئوه.

أما مبدأ المقدرة على الحركة فظاهر من سيرهم على ظهور خيلهم أو جمالهم خفافاً مسافات بعيدة بسرعة فائقة. وأما عنايتهم بمبدإ الأمنية فمعلوم من إيفادهم الأرصاد والعيون، ووضع الخيالة في المجنبة في القتال، ومراقبة جانب العدو مراقبة مستمرة للهجوم عليه عند سنوح الفرصة.

ومن المحتمل أننا لا نرى في كتب التاريخ مثالا للحركة السريعة التي قام بها خالد بن الوليد حين أمره عمر بنجدة جيش سورية وهو يحارب في العراق. فقطع ابن الوليد البادية بجيش يبلغ عدده تسعة آلاف مقاتل على ظهور الخيل والجمال، وابتدع وسيلة لضمان الماء اللازم لخيله، وذلك عمل يدل على نبوغ نادر، وسنشير الى ذلك عند البحث في فتح العراق.

وفي غزوة أُحُد كانت قوة المسلمين الف رجل، تخلف منها ثلثمائة رجل. وكانت قوة قريش ثلاثة آلاف رجل، فنظر الرسول في كثرة قوة العدو، فأخلى المدينة وانسحب الى شمالها جاعلاً جبل أحد خلفه، للاستفادة من مناعته ومن وضعه الشرف على ما حوله. ولما لم يكن الجانب الأيسر مسنوداً بقوة، وضع فيه مفرزة رماة بقوة خمسين رجلا لحمايته. أما جيش قريش فرتب صفوفه للهجوم بعد أن وضع قوة الخيالة على مجنبته، وكانت تبلغ مائتي رجل، وقدم الرماة في الخط الأول.

وكان خالد على رأس خيالة قريش في الجانب الأول يراقب رماة المسلمين ويشاغلهم ويتحين الفرص للهجوم عليهم، لكي

يقطع خط الرجعة على المسلمين . وفعلاً استطاع ذلك لما سنحت الفرصة ، فقلب فوز المسلمين الى انكسار مروع . فهذا كله يثبت لنا أن للعرب أسلوباً فى القتال ، وأن مبدأ المباغتة ومبدأ الأمنية كانا من أخطر المبادىء التى ساروا عليها .

وفى يوم ذى قار نرى بوضوح النظام الذى سار عليه العرب فى قتالهم الفرس ، وهو يؤيد ما ذهبنا اليه .

ولا يخفى أن معركة ذى قار وقعت بين غزوة بدر وغزوة أحد ، فانتقم فيها العرب من الفرس ، ونالوا ظفراً حاسماً شجعهم على الاستهانة بقوة فارس ، وساعدهم على غزو بلاد السواد غزواً متواصلاً ، حتى آل الأمر الى فتحهم تخوم العراق .

ويروى لنا صاحب الأغانى أخبـــار ذلك اليوم بالتفصيل . والواضح من ذلك أن العرب عبأوا قوتهم صفوفاً وقسموها إلى كتائب ، وجعلوا الظعن فى الوراء ليحموه بقلبهم ، وكان بمنزلة القاعدة التى يتمون منها الجيوش فى يومنا هذا وتوضع الخطط الحربية لحمايتها .

وأقاموا قوة فى الميمنة من بنى عجل ، وقوة فى الميسرة من بنى شيبان . أما القلب فألفته قبائل بنى بكر بن وائل . ومن الأساليب التى ساروا عليها أنهم لم يقدموا الصفوف للقتال دفعة واحدة لكى لا تصيبها سهام الفرس فتفتك بها . وكان الفرس على ما نعلم ماهرين فى الرماية . والحقيقة أن تقديم الصفوف بأجمعها فى وقت واحد يجعلها عرضة للسهام دفعة واحدة ، بينما البدء بالحركة بكتيبة واحدة يجعل الصفوف الأخرى فى مأمن من ضررها . وهـذا من الأساليب التى كانت تراعى فى هجوم الخيالة على الشاة ، إذ تبدأ الخيالة بخط منتشر ضعيف من الخيالة وتليها الخطوط المنظمة .

فالعرب على مايظهر جلياً دخلت ميدان القتال بنظام لم يكن أقل شأناً من نظام الفرس . وكان من أمره أن هزموهم شر هزيمة ، وطاردوهم الى أرض السواد بعد أن غنموا أحمالهم وأثقالهم .

ولعل الطريقة التى سار عليها الرسول (ص) فى غزوة بدر تدل على فكرة التعبئة عند العرب . كانت قوة المسلمين تبلغ ثلثمائة مقاتل . بينهم خيال أو خيالان فقط ، بينما كانت قوة قريش تربو على الألف وفيها مائة خيال .

وكان القصد من هذه الغزوة مباغتة قافلة قريش عند عودتها من الشام الى مكة . ولما وصلت قوة المسلمين الى مياه بدر علمت من الأسرى أن قريشاً أنجدت القافلة بقوة كبيرة كانت ثلاثة أضعاف قوة المسلمين . وكان لابد من الاصطدام ، لأن انسحاب المسلمين دون القيام بعمل مما يؤثر فى سطوة الاسلام ويشجع المنافقين على الشغب .

لذلك قرر الرسول أن يقاتل قريشاً بقوته الضعيفة على أن يزيد مناعتها بالتدابير التعبوية الموافقة . فاختار موضعاً يهيمن على معسكر قريش وقسم قوته الى ثلاثة أقسام ، وجعل لكل قسم قائداً ، ورتب الأقسام بعضها بجانب بعض ، وعبأها صفوفاً كالبنيان المرصوص ، وعرض الصفوف بنفسه فقدم المتأخر من الجنود وأخر المتقدم منهم فأصبحت الصفوف متراصة .

ومنع المسلمين من رمى السهام ومن التفاخر ، وطلب منهم أن لا يتقدموا من محلهم ، ولا يرموا إلا بعد أن تدنو قريش منهم على مسافة قريبة . وكان يقصد بذلك أن تصيب السهام قوة قريش الفائقة فلا تتبعثر . وبفضل هـذه الترتيبات انتصر المسلمون على قريش مع قلة عددهم وضآلة سلاحهم . ولاشك فى أن القتال بالكر والفر كان شائعاً عند العرب . ولعلهم كانوا يستعملونه كثيراً فى غزواتهم لأخذ الثار أو لجر مغنم . وكان يقع بين متقاتلين يبلغ عددهم العشرات ولا يجاوز المئات . ولما كانوا يقاتلون بالجموع فى أيامهم الشهيرة أو فى مقاتلتهم الفرس أو الروم كانوا بلا ريب يعبئون قواتهم صفوفاً .

(يتبع)

طه الهاشمى

قصص اجتماعية

ونماذج من أدب الغرب

مترجمة بقلم محمد عبد الله عنان المحامى

به مجموعة مختارة من القصص الشائق لثمانية من أعلام الأدب الفرنسى مع تراجمهم النقدية . فى ثلثمائة صفحة طبع دار الكتب وثمنه ١٠ قروش — ويطلب من مترجمه بشارع الساحة نمرة ٣٩ تليفون ٤٤٦٨٣ وجميع المكاتب